**المحاضرة الخامسة: الرومانسية والخلفيات الفكرية والفلسفية للفكر المعاصر**

**كانت المشكلة الخلقية في صلب اهتمام الفلاسفة اليونان، وكانت علاقة الدين بالفلسفة من أهم القضايا الفلسفية في القرون الوسطى، أما الفلسفة الحديثة فإنها تأثرت بالعوامل والتغيرات الفكرية والاجتماعية التي سادت ابتداء من عصر النهضة في القرن الخامس عشر، وأهم هذه التغيرات تعاظم حضور العلم، وتضاؤل سلطة الكنيسة ممثلة للدين عند الأوربيين، وفي حين كانت الفلسفة القديمة تربط الحركة بالحياة التي تخص الحيوان دون الجماد، جاءت نظرية نيوتن أن المادة الجامدة متحركة أيضاـ وأنها إذا بدأت في الحركة ظلت متحركة ما لم يوقفها مؤثر خارجي.**

**وكان من أهم العوامل التي أثرت في مسار الفكر الفلسفي الحديث، تغير نظرة الإنسان إلى الكون وإلى نفسه باعتباره محور هذا الكون في أرضه التي يسكنها، فلا يزال العلم يكشف عن صغر حجم الأرض، وأنها لا تعدو أن تكون كوكبا من بين مجموعة كواكب دائرة حول الشمس، ضمن مجرة من آلاف ملايين المجرات التي تملأ الكون، فلا تعدو أرض الإنسان وفق هذا أن تكون ذرة في صحراء الكون، وقد تركت هذه الاكتشافات أثرها الكبير على مجمل الفلسفات الحديثة والمعاصرة.**

**وإذا كان المنهج الاستنباطي الذي ينطلق من المسلّمات ليستخلص منها النتائج هو الطابع العام للمنهج العلمي في الفلسفة الكلاسيكية، فإن المنهج الاستقرائي القائم على التجربة والملاحظة صار أكثر حضورا، وخاصة بعد النجاح الذي أحرزه العلم التجريبي والفتوح التي قاد إليها، في صورة بدت معها الفلسفة ثابتة لا تكاد تبرح مكانها، ولكن المنهج الاستنباطي استدرك الوضع وواكب حركة العلوم التجريبية فأفادها، واستفاد منها، بعد أن تخلص من صيغه القديمة الصورية الجامدة، وصار يعتمد على الصيغ الرمزية الرياضية الأكثر تجريدا.**

**ويمكن القول إن القرنين الثامن عشر والتاسع عشر اللذين شهدا سيادة فيزياء نيوتن كانا قرني تمجيد للعقل بما حققه من منجزات في شتى ميادين المعرفة، ولكن هذا العصر نفسه شهد ردود فعل واضحة تجاه هذه النزعة العلمية العقلانية الواثقة.**

**الرومانسية:**

**يذهب جل الدارسين إلى أن الرومانسية تشكل أبرز رد فعل على النزعة العلمية والعقلية التي كانت تتعاظم منذ عصر النهضة، وعلى الرغم من أن الرومانسية لم تكن بالأصل حركة فلسفية فإنها تركت آثارا كبيرة على مجمل الفكر الفلسفي الذي ساد بعدها.**

**في القرن الثامن عشر شغف المثقفون في فرنسا بجانب الحساسية العاطفية والشعور الوجداني وألحوا على أصالتهما في الطبيعة البشرية، وأن النزعة العلمية العقلية التي سادت في القرن التاسع عشر لم تكن لتفي بالجانب العاطفي الوجداني للإنسان، لأن العالم أرحب من الفيزياء والذكاء.**

**تحدث جان جاك روسو الذي يعدّ رائد النزعة الرومانسية عما سماه "الإنسان الطبيعي" الذي يشعر ويتأثر أكثر مما يفكر تفكيرا منطقيا لجلب نفع أو لدفع ضر.بل إن الذكاء والعقل كما يرى روسو هما من ثمار البيئة الاجتماعية التي تفسد الإنسان وتستعبده بعد أن يخلق حرّا عفويا، ومهمّة التربية عند روسو هي المحافظة على هذا "الإنسان الطبيعي" بأن نجنّبه أي تعليم منظّم على يد كائنات بشرية أخرى..والانفعالات البدائية والغرائز الطبيعية هي الجانب الأصيل في شخصية الإنسان، والإنسان المثالي هو ذلك الكائن الذي يفيض حبا وعطفا على الآخرين، هو الذي يستلهم الشعور الديني والاعتراف بالجميل.**

**وقد كان هذا الموقف من روسو محاولة للوقوف في وجه الثورة الفرنسية التي نسبت نفسها للعقل وتنكرت للدين، فكانت نزعة روسو الرومانسية محاولة لإعادة الأمور إلى نصابها بالتقليل من شأن العقل والإلحاح على الدين.**

**ولما كان العقل والأعراف والتقاليد مما يقيد الإنسان بنظر الرومانسيين، فإنهم سعوا إلى ازدراء طقوس الناس وأعرافهم في الملبس والعادات والفن وحتى في الأخلاق، وكان شعارهم (كن ذاتك ونمّ شخصيّتك)**

**وقد لاحظ الباحثون أن النزعة الفردية التي بشّرت بها الرومانسية مهّدت السبيل للنظام الرأسمالي الذي يقوم على حرية المبادرة الفردية والاستقلالية، على الرغم من أن الرومانسيين كانوا يبدون التعاطف نحو الفقراء والفلاحين لا نحو الأغنياء الجشعين، فالأولون هم رمز الفضيلة والأخلاق.**

**ويربط بعض الباحثين بين الاتجاه الرومانسي وبين أعمال بيرون وشوبنهاور ونيتشة وصولا إلى موسوليني وهتلر، في مقابل الاتجاه العقلي الذي يمتد من الثورة الفرنسية ويمر عبر الفلاسفة الأنجليز وصولا إلى ماركس والثورة البلشفية في الاتحاد السوفييتي سابقا.**

**ونحاول في ما يأتي تلخيص أهم المذاهب والتيارات الفكرية والفلسفية التي سادت خلال القرنين الأخيرين مع ذكر لأهم مبادئها وأبرز أعلامها.**